الإخلاص

إن البواعث التي تسوق المرء إلى العمل، وتدفعه إلى إجادته، وَتُغْريه بتحمل التعب فيه، أو بذل الكثير من أجله، كثيرة متباينة، منها القريب الذي يكاد يُرَى مع العمل، ومنها الغامض الذي يختفي في أعماق النفس، وربما لا يدركه العامل المتأثر به، مع أنه سر اندفاعه في الحقيقة إلى فعل ما فعل، أو ترك ما ترك.



الشيخ / محمد الغزالي

الغرائز البشرية المعروفة هي قواعد السلوك العام، ومن اليسير أن ترى في حركات رجلٍ أمامك حُبَّهُ لنفسه، أو طلبه للسلامة، أو حرصه على المال، أو ميله للفخر، أو تطلعه للظهور.

وما أكثر ما تكون مشاعرُ الإعجاب أو الكراهية أو المحاكاة أو الكبرياء مصدرَ ما يدور بين الناس من حديث، وما يقع بينهم من تصرفات.

والإسلام يرقب، بعناية فائقة، ما يقارن أعمال الناس من نيات، وما يلابسها من عواطف وانفعالات، وقيمة العمل عنده ترجع -قبل كل شيء- إلى طبيعة البواعث التي تمخضت عنه.

قد يُعطِي الإنسانُ هبةً جزيلةً؛ لأنه يريد بصنائع المعروف أن يستميل إليه القلوبَ، وقد يعطيها؛ لأنه يريد أن يجزي خيرًا من سبقوا فأسدوا إليه خيرًا.

وكلا المسلكين كرمٌ دفع إليه شعورُ المرء بنفسه: سلبًا أو إيجابًا كما يعبر علماء النفس ولكن الإسلام لا يعتد بالصدقة إلا إذا خلصت من شوائب النفس، وتمخضتْ لله وحده على ما وصف القرآن الكريم:

﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَآءً وَلَا شُكُورًا﴾

(الإنسان: ٩)

﴿ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾

(الليل: ١٨ - ٢١)

ولتصحيح اتجاهات القلب، وضمان تجرده من الأهواء الصغيرة، قال رسول الله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة يتزوجها، فهجرته إلى ما هاجر إليه»[(١)].

إن ألـوف المسافرين يقطعون المسافة بين مكة والمدينة لأغراض شتى، ولكن نية الانتصار للدين والحياة به، هي التي تفرق بين المهاجر والمسافر! وإن كانت صورة العملين واحدة!

فمن ترك مكة إلى المدينة، فرارًا بدينه من الفتن، وإقامة لصرح الدولة الجديدة في بلدها الجديد، فهو المهاجر، وأما من رحل لشئون أخرى فليس من الهجرة في شيء.

إنَّ صـلاح النية وإخـلاص الـفـؤاد لرب العالمين، يرتفعان بمنزلة العمل الدنيوي البحت، فيجعلانه عبادة متقبَّلة.

وإنَّ خُبث الطوية يهبط بالطاعات المحضة، فيقلبها معاصي شائنة فلا ينال المرء منها بعد التعب في أدائها إلا الفشل والخسار.

قد يبني الإنسان قصرًا منيف الشرُفات، فسيح الـرَّدَهـات، وقد يغرس حديقة ملتفة الأغصان متهدِّلة الأثـمـار، وهـو بين قصره المشيد، وبستانه النضيد، يُعدُّ من ملوك الدنيا. بيد أنَّه إذا قصد من وراء بنيانه وغراسه نفع الناس، كان له فيهما ثوابٌ غير مقطوع.

قال رسول الله ﷺ: «من بنى بنيانًا في غير ظلم ولا اعتداء أو غرسَ غرسًا في غير ظلم ولا اعتداء، كان له أجرًا جاريًا، ما انتفع به أحدٌ من خلق الرحمن تبارك وتعالى»[(٢)]!

وقال: «ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا فيأكل منه طيرٌ أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة»[(٣)].

بل إن الـلـذاذات التي تتشهاها النفس، إذا صاحبتها النيةُ الصالحة والهدف النبيل، تحوَّلت إلى قرُبات؛ فالرجل يواقع امرأته، يريد أن يحفظ عفافه ويصون دينه، له في ذلك أجرٌ «وفي بُضع أحدكم صدقة»[(٤)]، وما يَطعَمُه في بدنه، أو يُطعِمه أولادَه وزوجته، له مثوبة بنية الخير التي تقارنه.

عن سعد بن أبي وقاص أن رسول الله ﷺ قال له: «إنك لن تنفق نفقة، تبتغي بها وجه الله، إلا أجرت عليها، حتى ما تجعله في فم امرأتك»[(٥)].

---

(١) رواه مسلم عن عمر بن الخطاب برقم (١٩٠٧). (المجلة).

(٢) مسند أحمد عن سهل بن معاذ، رقم: (١٥٦١٦)، والمعجم الكبير للطبراني رقم ٤١٠، واللفظ للطبراني. (المجلة).

(٣) رواه مسلم عن جابر برقم (١٥٥٢). (المجلة).

(٤) رواه مسلم عن أبي ذر برقم (١٠٠٦). (المجلة).

(٥) رواه البخاري عن سعد بن أبي وقاص برقم (٥٦). (المجلة).

وقال: «ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة، وما أطعمت ولدك فهو لك صدقة، وما أطعمت زوجتك فهو لك صدقة، وما أطعمت خادمك فهو لك صدقة»[٦].

والحق أن المرء ما دام قد أسلم لله وجهه وأخلص نيته، فإن حركاته وسكناته ونوْماته ويقظاته، تحتسب خطوات إلى مرضاة الله! وقد يعجز عن عمل الخير الذي يصبو إليه؛ لقلة ماله أو ضعف صحته، ولكن الله المطلع على خبايا النفوس يرفع الحريص على الإصلاح إلى مراتب المصلحين، والراغب في الجهاد إلى مراتب المجاهدين؛ لأن بُعدَ هِمَّتِهم أرجحُ لديه من عجز وسائلهم؟

حدث في غزوة العُسرة أن تقدَّم إلى رسول الله ﷺ رجالٌ يريدون أن يقاتلوا الكفار معه، وأن يجودوا بأنفسهم في سبيل الله، غير أن الرسول لم يستطع تجنيدهم، فعادوا وفي حلوقهم غصة؛ لتخلفهم عن الميدان وفيهم نزل قوله عز وجل: ﴿وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ﴾

(التوبة: ٩٢)

أترى أن الله يهدر هذا اليقين الراسخ، وهذه الرغبة العميقة في التضحية؟ كلا! ولذلك نوَّه النبيّ ﷺ بإيمان أولئك القوم وإخلاصهم، فقال للجيش السائر: «إن أقوامًا بالمدينة خلفنا، ما سلكنا شعبًا ولا واديًا إلا وهم معنا فيه، حبسهم العذر»[٧].

إن النية الصادقة سجلت لهم ثواب المجاهدين؛ لأنهم قعدوا راغمين.

ولئن كانت النية الصالحة تُضفي على صاحبها هذا القبول الواسع، فإن النية المدخولة تنضم إلى العمل الصالح -في صورته- فيستحيل بها إلى معصية تستجلب الويل؛ ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾

(الماعون: ٤ - ٧)

إن الصلاة مع الرياء أمستْ جريمةً، وبعدما فقدت روحَ الإخلاص باتت صورةً ميتةً لا خير فيها، وكذلك الزكاة إنها إن صدرتْ عن قلبٍ يسخو لله ويدخر عنده قُبلت، وإلا فهي عمل باطل: ﴿لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟﴾

(البقرة: ٢٦٤)

(٦) رواه أحمد عن المقدام بن معديكرب برقم (١٧١٧٩). (المجلة).

(٧) رواه البخاري عن أنس برقم (٢٨٣٩). (المجلة).

إن القلب المُقفِر من الإخلاص لا ينبت قبولًا، كالحجر المكسوُّ بالتراب لا يخرج زرعًا، والقشور الخادعة لا تغني عن اللباب الرديء شيئًا، ألا ما أنفسَ الإخلاصَ، وأغزر بركته! إنه يخالط القليل فينميه حتى يزن الجبال، ويخلو منه الكثيرُ فلا يزن عند الله هباءة!

ولذلك قال سول الله ﷺ: «أخلص دينك يكفك العملُ القليل»[٨].

ويظهر أن تفاوت الأجور التي رُصدت للحسنات، من عشرة أضعاف إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة؛ يعود إلى سر الإخلاص الكامن في أطواء الصدور وهو ما لا يطلع عليه إلا عالِمُ الغيب والشهادة.

فعلى قدر نقاء السريرة، وسعة النفع تُكتبُ الأضعاف.

وليس ظاهر الإنسان، ولا ظاهر الحياة الدنيا، هو الذي يمنحه الله رضوانه، فإن الله تبارك وتعالى يُقبلُ على عباده المخبتين المخلصين، ويَقبل منهم ما يتقربون به إليه. أما ما عدا ذلك من زخارف الدنيا وتكلفات البشر فلا قيمة له ولا اكتراث به.

قال رسول الله ﷺ: «إن الله لا ينظر إلى أجسادكم، ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم»[٩]. وفي الحديث: «إذا كان يومُ القيامة جيء بالدنيا، فيميز منا ما كان لله وما كان لغير الله، رُمي به في نار جهنم»[١٠].

فمن ربط حياته بهذه الحقائق، فقد استراح في معاشه، وتأهب لمعاده، فلا يضيره ما فقد، ولا يحزنُه ما قدم؛ قال رسول الله ﷺ: «من فارق الدنيا على الإخلاص لله وحده لا شريك له، وأقام الصلاة وآتى الزكاة، فارقها واللهُ عنه راضٍ»[١١]. وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾

(البينة: ٥)

والإخلاص يسطع شعاعه في النفس، أشدّ ما يكون تألقًا في الشدائد المحرجة. إن الإنسان عندها ينسلخ من أهوائه، ويتبرأ من أخطائه ويقف في ساحة الله أوَّابًا، يرجو رحمته ويخاف عذابه. وقد صور القرآن الكريم فزع الإنسان عند الحيرة، وانقطاعه إلى ربه يستنجد به، ليخرجه من مأزقه الذي وقع فيه: ﴿قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٣ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ﴾

(الأنعام: ٦٣، ٦٤)

---

(٨) رواه الحاكم في المستدرك عن معاذ بن جبل برقم (٧٨٤٤). (المجلة).

(٩) رواه مسلم عن أبي هريرة برقم (٢٥٦٤). (المجلة).

(١٠) ذكره المنذري في الترغيب والترهيب عن عمرو بن عنبسة برقم (١٢) وعزاه إلى البيهقي، ثم قال: «موقوف... وقد يقال: إن مثل هذا لا يقال من قِبَل الرأي والاجتهاد فسبيله سبيل المرفوع». (الترغيب والترهيب ١/ ٥٥) (المجلة).

(١١) رواه ابن ماجه عن أنس بن مالك برقم (٧٠). (المجلة).

إن هذا الإخلاص حالٌ طارئة، والأحوال التي تنتاب المرء وتفارقه ليست خُلقًا، والله تبارك وتعالى يريد من الناس أن يعرفوه حق المعرفة، وأن يقدروه حق قدره، في السراء والضراء جميعًا، وأن يجعلوا الإخلاص له مكينًا في سيرتهم فلا تنتهي صلتهم به، ولا يقصدون بعملهم غيره.

وحرارة الإخلاص تنطفئ رويدًا رويدًا، كلما هاجت في النفس نوازع الأثرة وحب الثناء، والتطلع إلى الجاه وبُعد الصيت، والرغبة في العلو والافتخار؛ وذلك لأن الله يحب العمل النقيَّ من الشوائب المكدِّرة.

﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾

(الزمر: ٣)

وطبيعة الفضيلة كطبيعة الثمرة الناضجة، يجب لسلامتها والإبقاء على نظافتها وحلاوتها، أن تكون خالية من العطوب والآفات!!

وقد أعلن الإسلام كراهيته العنيفة للرياء في الأعمال الصالحة، واعتبره شركًا بالله رب العالمين. والحق أن الرياء من أفتك العلل بالأعمال، وهو إذا استكمل أطواره وأتمَّ دَوْرته في النفس، كما تستكمل جراثيم الأوبئة أطوارها ودورتها؛ أصبح ضربًا من الوثنية، التي تقذف بصاحبها في سواء الجحيم؛ قال رسول الله ﷺ: «الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شِرْكٌ، وَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءَ مُظْلِمَةٍ»(١٢).

وعن ابن عباس: قال رجل: يا رسول الله إني أقف الموقفَ أريد وجه الله، وأريد أن يرى موطني. فلم يردّ عليه رسول الله ﷺ حتى نزلت: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾

(الكهف: ١١٠)

وإنما كانت حملات الإسلام على الرياء -وغيره من العلل الناشئة عن فقد الإخلاص- على ما هي عليه من الشدة؛ لأنها فساد معقد، وطريقة ملتوية في التنفيس عن الشهوات المكبوتة.

فالرذيلة السافرة تولِّد جريمة، وتسير في المجتمع جريمةً، فهي منكورة محقورة. ولعل صاحبها، لشعوره بسُوئها، يتوب منها على عجلٍ أو على مهلٍ.

أما الرذيلة التي تظهر في لباس من الطاعة المطلوبة، فهي رذيلة مرهوبة الشر على صاحبها وعلى المجتمع؛ ذلك أن صاحبها يقترفها وهو يُشبع نَهَم نفسه، في الوقت الذي

(١٢) رواه الحاكم في المستدرك برقم: (٤). (المجلة).

يتوهم فيه أنه يُرْضي الله.. فكيف يحس أنه ارتكب إثمًا؟ وكيف يتوب مما يفترض أنه خير؟

أما المجتمع العام فمصائبه من الفضلاء المنافقين أنْكى من مصائبه التي يُنزِلها به معتادو الإجرام من الصعاليك.

إن ضعف الإخلاص عند كثير من ذوي المواهب، جعل البلاد تشقى بمواهبهم وترجع القهقرى.

ثم إن تلويث الفضيلة بأقدار الهوى عدْوان على منزلتها، ومحاولة متعمدة لإسقاط قيمتها. وهذا جُرْمٌ آخر، ينشأُ عن فقدان الإخلاص، والرجل الذي يقصد بعمله وجه الناس، ويذهل عن وجه ربه، رجل لا يدري -لسفاهته- حطة ما يصنع. إنه ينصرف عن القوي الغني، ذي الجلال والإكرام إلى الضعاف الفقراء الذين لا حول لهم ولا طول؛ ولذلك قال رسول الله ﷺ: « إِذَا جَمَعَ اللَّهُ النَّاسَ يَوْمَ القِيَامَةِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ، نَادَى مُنَادٍ: مَنْ كَانَ أَشْرَكَ فِي عَمَلٍ عَمِلَهُ لِلَّهِ أَحَدًا فَلْيَطْلُبْ ثَوَابَهُ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ »(١٣).

على العسكريين -جنودًا أو قادة- أن يجعلوا جهادهم منزهًا عن الشوائب، فقد ربطوا حياتهم ومماتهم بواجب مقدس، تصغر إلى جانبه الألقاب والرتب والشارات، فليُؤْثِروا ما عند الله، ولْيقفوا أمانيهم على التضحية المرتقبة والفداء العزيز.

عن عبد الله بن عمرو بن العاص، قلت: يا رسول الله، أخبرني عن الجهاد والغزو فقال: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، إِنْ قَاتَلْتَ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، بَعَثَكَ اللَّهُ صَابِرًا مُحْتَسِبًا، وَإِنْ قَاتَلْتَ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا بَعَثَكَ اللَّهُ مُرَائِيًا مُكَاثِرًا، يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو، عَلَى أَيِّ حَالٍ قَاتَلْتَ، أَوْ قُتِلْتَ بَعَثَكَ اللَّهُ عَلَى تِلْكَ الْحَالِ»(١٤).

وعلى الموظف، وهو في ديوانه، أن يعتد ما يكتبه، وما يحسبه، وما يكدُّ فيه عَقله، ويتعب فيه يده، عملًا يقصد به مصلحة البلاد ورضا الله.

إن الدابة قد تكدح سحابة النهار، نظير طعامها. والإنسان قد يهبط بقيمة جهده إلى مستوى الحيوان، فيكون عمله لقاء راتبه فحسب.

لكن الرجل العاقل يغالي بتفكيره ونشاطه، فيجعلهما لشيء أجلَّ.

ومن المؤسف أن هناك جمهورًا من الموظفين لا يفقهون إلا منطق المال والدرجة والترقية. ويحتبسون بدينهم ودنياهم داخل هذا النطاق، ويربطون رضاهم وسخطهم، وفتورهم ونشاطهم بميزانه المضطرب.

---

(١٣) رواه الترمذي في السنن عن أبي سعد بن أبي فضالة الأنصاري برقم (٣١٥٤). (المجلة).

(١٤) سنن أبي داود، حديث رقم: (٢٥١٩). (المجلة).

قال رسول الله ﷺ: « إِذَا كَانَ آخرُ الزَّمَانِ صَارَتْ أُمَّتِي ثَلَاثَ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللَّهَ خَالِصًا، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللَّهَ رِيَاءً، وَفِرْقَةٌ يَعْبُدُونَ اللَّهَ يَسْتَأْكِلُونَ بِهِ النَّاسَ، فَإِذَا جَمَعَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، قَالَ لِلَّذِي يَسْتَأْكِلُ النَّاسَ: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي، وَمَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ قَالَ: وَعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ أَسْتَأْكِلُ بِهِ النَّاسَ. قَالَ: لَمْ يَنْفَعْكَ مَا جَمَعْتَ شَيْئًا تَلْجَأُ إِلَيْهِ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ قَالَ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُهُ رِيَاءً: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ قَالَ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ رِيَاءَ النَّاسِ. قَالَ: لَمْ يَصْعَدْ إِلَيَّ مِنْهُ شَيْءٌ، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى النَّارِ، ثُمَّ يَقُولُ لِلَّذِي كَانَ يَعْبُدُهُ خَالِصًا: بِعِزَّتِي وَجَلَالِي مَا أَرَدْتَ بِعِبَادَتِي؟ قَالَ: بِعِزَّتِكَ وَجَلَالِكَ أَنْتَ أَعْلَمُ بِذَلِكَ مِنِّي أَرَدْتُ بِهِ ذِكْرَكَ وَوَجْهَكَ. قَالَ: صَدَقَ عَبْدِي، انْطَلِقُوا بِهِ إِلَى الْجَنَّةِ »(١٥).

والإخلاص العميق ألزم ما يكون لميادين العلم والثقافة، فإن العلم أشرف ما ميز الله به الأكرمين من خلقه. فمن الزراية الشنيعة به أن يُسَخّر لعوامل الشر، وأن تختلط به الأهواء والفتن، والعالَم لم تُصِبْه الجراحاتُ القاتلة إلا على أيدي علماء فقدوا الخلق الفاضل، والنزاهة المحمودة.

(١٥) رواه الطبراني في المعجم الأوسط عن أنس بن مالك، حديث رقم: (٥١٠٥). (المجلة).

وقد أوجب الإسلام على الأستاذ والطالب جميعًا أن يتجردا للعلم، وأن ينظرا قبل كل شيء إلى المثل العالية والمصلحة العامة. والتعلم والتعليم ابتغاء المال وحده وتَلَهُّفًا على المنفعة الشخصية المحضة، كما هو ديدن الألوف اليوم؛ هو في الحقيقة استهانة بقيمة العلم، وإضاعة لرسالته الجليلة.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى بِهِ وَجْهُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَعَلَّمُهُ إِلَّا لِيُصِيبَ بِهِ عَرَضًا مِنَ الدُّنْيَا، لَمْ يَجِدْ عَرْفَ(١٦) الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»(١٧).

وقد كره الإسلام كذلك أن يطلب المرءُ العلمَ حتى إذا نبغ فيه استكبر به على الناس، واتخذه وسيلة للشغب والمراء.

وفي الحديث: « لَا تَعَلَّمُوا الْعِلْمَ لِتُبَاهُوا بِهِ الْعُلَمَاءَ، وَلَا لِتُمَارُوا بِهِ السُّفَهَاءَ، وَلَا تَخَيَّرُوا بِهِ الْمَجَالِسَ، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ فَالنَّارُ النَّارُ»(١٨).

إن العلم -على اتساع فنونه الدنيوية والأخروية- لم يزدهر ويصل إلى المرحلة التي بلغها إلا بالتجرد الحق، والتعالي عن الأغراض الصغيرة. وهذا لا يعني البتة أن

(١٦) عرف الجنة: ريحها.

(١٧) رواه أبو داود في السنن عن أبي هريرة برقم: (٣٦٦٤). (المجلة).

(١٨) رواه ابن ماجه في السنن، عن جابر بن عبد الله، برقم: (٢٥٤). (المجلة).

يكلَّف العلماء والمتعلمون بتحمل مشاقّ العيش، والتعرض للأزمات المحرجة، فإن إخلاص النية لا يستلزم إعنات المخلص وتحميله الأذى.

والعلل الناشئة عن فقدان الإخلاص كثيرة، وهي إذا استفحلت استأصلت الإيمان، وإذا قَلَّت تركت به ثُلمًا شتى، ينفذ منها الشيطان.

وإنما يسخط الله عز وجل على ذوي الأغراض والمُرائين وغيرهم من عُباد المال والجاه؛ لأن المفروض في المسلم أن يضحي بالأغراض والعلاقات والشهوات في سبيل الله، لا أن يذهل عن وجه ربه في سبيلها.

وقد كان سحرة فرعون آية في اليقين الصحيح والإخلاص العالي، عندما رفضوا الإغراء، وحقَّروا الإرهاب، وداسوا حب المال والجاه، وقالوا للملك الجبار:

﴿ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ ﴿٧٢﴾ إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴾

(طه: ٧٢، ٧٣)

وشتان بين هؤلاء الذين يستهينون بالدنيا في سبيل الله، وبين الذين يسخِّرون الدين نفسه في التقرب من كبير، أو الاستحواذ على عَرَض حقير.

